

مقياس: النقد الأدبي العربي الحديث

السنة الثانية ليسانس (دراسات أدبية/ دراسات نقدية)

المحاضرة الثالثة: النقد الإحيائي

تمهيد:

النقد الأدبي العربي جزء من الثقافة العربية التي أنتجته، لكن يصعب تصور مرحلتها الإحيائية دون التفاعل مع الثقافة الغربية؛ ففي نهاية القرن التاسع عشر (19م) امتد الاهتمام الإحيائي إلى الدراسات الأدبية والنقدية فظهرت مؤلفات تحاول استعادة الأدب والبلاغة والنقد العربي، وسميت هذه المرحلة بذلك (الإحيائية)؛ لأنها أحييت الأدب والنقد وبعثته من جديد بعدما اعتراه من تراجع وضعف في عصر الضعف (المملوكي والعثماني).

ويمكن القول: إن الاتجاه الإحيائي ينتمي إلى المذهب الكلاسيكي والتصور الذي أقام مبادئه على أساسه في مطلع عصر النهضة؛ ذلك أن النهضة في بدايتها بنيت على العودة إلى التراث العربي في أدبه ونقده، واعتمدت الاستمداد المباشر منه.

وقد "اتجه النزوع لإحياء التراث العربي وجهة سديدة هي إحياء القيم العربية الموروثة في الفكر بمعناه الواسع، ثم إخضاعها للنظر العقلي، الذي كان من سمات النهضة لتوائم الموقف الفكري الجديد في القرن التاسع عشر وفجر القرن العشرين، وانسحب هذا على المنهج الإحيائي على الوجه الأدبي للنهضة".

ولذلك لا ينظر إلى الإحيائيين على أنهم اتجاه واحد أو جماعة واحدة؛ إذ عرف الإحياء في النقد اتجاهين اثنين؛ كان الأول منهما يدعو إلى استلهام التراث وموافقته في الشكل والمضمون، ويمكن تسميته (اتجاه التسليم والانقياد)، وتمثله المؤلفات النقدية:

- ارتياد الشعر في انتقاد الشعر، لمحمد سعيد.
- المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية، لحمزة فتح الله.

- علم الأدب 'مقالات لبعض مشاهير كتاب العرب'، للأب لويس شيخو اليسوعي.
- دليل الهائم في صناعة الناثر والناظم، لشاكر البتلوني.

وفي المقابل كان الاتجاه الآخر أكثر انفتاحاً؛ إذ اشترط في عودته إلى التراث أن يكون أساساً للتجديد تبعاً لما يوافق العصر، واعتمد (إعادة الصياغة للمقولات القديمة)، ويمكن أن نسميه (اتجاه الانتقاء والانتقاد)؛ الذي يصدر عن احترام التراث شأنه شأن الاتجاه الأول، لكنه لا ينفاد له كل الانقياد ولا يسلم له كل التسليم؛ وإنما هو يتناوله ويفحصه وينقده، ثم يستمد منه ما يتلاءم مع حاجة عصره، ويمثله كتاب (الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية) للشيخ حسين المرصفي؛ الذي سنتخذ نموذجاً للنقد الإحيائي.

1- التعريف بكتاب (الوسيلة الأدبية) للشيخ حسين المرصفي:

يعد الشيخ 'حسين المرصفي' (ت 1890م) رائد النقد العربي الحديث في مصر، قبل أن يبرز القرن العشرون بنحو ربع قرن على نحو ما بعث به 'محمود سامي البارودي' الشعر العربي الحديث، وقد تمكن بفضل طاقته الأدبية واللغوية والنقدية وحسه المرهف واتصاله بأحداث عصره أن يفرض نفسه على الساحة الفكرية والأدبية والنقدية.

ويمثل الشيخ 'حسين المرصفي' اتجاه (الانتقاء والانتقاد) في النقد الإحيائي، وقد وصف بأنه صاحب الخطوة الجدية الأولى على طريق تجديد النقد الأدبي كما عرفه القدماء، وتطبيق النظريات العربية كما عرفها نقاد العصر العباسي، وبأنه عرض علوم العربية عرضاً جديداً بأسلوب جديد، وبخاصة علوم البلاغة مبيناً منزلة كل منها في نقد الكلام.

وكتاب (الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية) يتضمن المحاضرات التي ألقاها الشيخ 'حسين المرصفي' على طلبة دار العلوم في السنوات الأولى من إنشائها؛ إذ جمع تلاميذه هذه المحاضرات ونشروها في عمليتين: الأولى (الوسيلة الأدبية) وهو كتاب ضخيم في جزئين؛ تزيد عدد صفحاته عن تسعمائة صفحة، وصدر الجزء الأول منه بين عامي 1872-1875م، والجزء الآخر بين عامي 1875-1879م، والعمل الثاني كتاب (دليل المسترشد في فن الإنشاء) اكتملت مخطوطته قبل وفاة المرصفي لكنها لم تنشر.

ويمثل كتاب (الوسيلة الأدبية) موسوعة للعلوم العربية؛ من النحو والصرف والبلاغة والبيان والمعاني والبديع والعروض والقوافي، إلى جانب ما فيه من النصوص الأدبية والحكايات والنوادر.

فعنوان الكتاب يوحي بهذه الموسوعية، ويذكر بتلك الكتب التي تحمل عناوين مشابهة مثل (مفتاح العلوم) للسكاكي، كما أن طبيعة المحتوى والحديث عن العلوم العربية مجتمعة حديثاً يضمه كتاب واحد، يستهدف تقديم زاد ثقافي متكامل، هذا فضلاً عن الاستمداد والنقل المباشر عن أعلام النقد القديم كالجاحظ والعسكري والباقلاني وابن الأثير وابن خلدون وغيرهم.

وعبارة (الوسيلة الأدبية) تذكر بعبارة (الأورجانون) التي أطلقت على مجموعة كتب الفيلسوف أرسطو طاليس؛ فكلمة (أورجانون) الإغريقية الأصل، التي أصبحت في اللغتين الفرنسية والإنجليزية معناها الأداة أو الوسيلة، وقد عدت مؤلفات أرسطو وسيلة للمعرفة والتفكير المنطقي، على نحو ما عدت وسيلة الشيخ حسين المرصفي أداة تعلم اللغة العربية وآدابها ووسيلة إنشاء الشعر والنثر في عصره.

كل ذلك يؤكد الطابع الإحيائي للكتاب - طابع الاستمداد من القديم في عصور ازدهاره - في محاولة لبعثه شكلاً وتجاوز مضمونه حسب الحاجة بما يلائم مقتضيات العصر؛ وهي هي الغاية التجديدية التي سعى إليها الكتاب؛ الذي وصف بأنه: أول كتاب ألف في علوم العربية في القرن التاسع عشر على منهج حديث، كما وصف منهج المرصفي فيه بأنه: كان إحياء وتجديداً بكل معاني هاتين الكلمتين.

2- الآراء النقدية للمرصفي في (الوسيلة الأدبية):

في البداية نشير إلى أن الموقف النقدي للشيخ 'حسين المرصفي' يقوم على مجموعة من المبادئ الأساسية أهمها:

- عدم التحامل في النقد؛ وهو موقف يتفرع عنده من مبدأ أصيل في تفكيره، عماده تحقيق الحق وتقرير الصواب وتحصيل الصلاح.

- الاستقلال بالرأي والبعد عن التقليد؛ وهو أيضا موقف يتفرع عن مبدئه في رفض قيود التبعية.

- ويتبع ذلك البصر بما يلائم فيؤخذ به، ورفض ما لا يلائم حتى لو كان صالحا في عصره الذي صدر فيه؛ لأن الظروف تتغير والأذواق تتطور، وليس ضروريا أن يكون ما صلح في زمان صالحا لزمان آخر.

وفيما يأتي بعض قضايا النقد القديم، التي بعثها المرصفي من جديد وفق هذه المبادئ:

أ- مفهومه للشعر:

وافق 'المرصفي' في تحديده لمفهوم الشعر ما ذهب إليه 'ابن خلدون' من أن الشعر صناعة؛ إذ اعتمد على الفصل الذي عقده 'ابن خلدون' لصناعة الشعر ووجه تعلمه، وقد قرر ابن خلدون أن هذه الصناعة وتعلمها مستوف في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، ولكن المرصفي لم يرجع إلى ابن رشيق، بل اعتمد على ما جاء في المقدمة؛ فذهب كما ذهب ابن خلدون.

ورأى كل منهما أن لكل لغة أحكامها الخاصة بها، وقد تستفيد لغة من لغة أخرى، وأن الأسلوب لا تكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق، بل يحتاج بخصوصه إلى تلمظ في العبارة ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصت العرب بها واستعمالها.

والأسلوب في الشعر هو المنوال الذي تنسج فيه التراكيب؛ ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض؛ فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن الصناعة الشعرية.

واتفق المرصفي مع ابن خلدون على أن طريقة اكتساب هذا الأسلوب، تقوم على استحضار الذهن لصورة التراكيب الشعرية المبنية على هيئة خاصة، ولا يتأتى هذا الاستحضار إلا بحفظ الجيد من الشعر فتنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها؛ وهذا أول المبادئ التي يتطلبها العمل الشعري.

والمبدأ الثاني؛ هو نسيان المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة، فإذا نسيها "انتقش الأسلوب في النفس كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة"، أما المبدأ الثالث؛ فيتضمن مراجعة الشاعر لشعره بالنظر فيه وتنقيحه ونقده.

ولذلك نقد 'المرصفي' التعريف العروضي للشعر؛ بأنه (قول موزون مقفى)، ورأى أن هذا التعريف: "ليس بحد للشعر الذي نحن بصدده، ولا يرسم له، وصناعتهم إنما تنتظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة، فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا، فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية".

وهو التعريف الذي أخذه عن ابن خلدون، ونصه: أن "الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به"، ولكن المرصفي خالف ابن خلدون في اتفاق الشعراء العرب على أساليب مخصوصة في الشعر؛ لأنه بذلك أخرج بعض الشعراء كالممتنبي والمعري لأنهما لم يجريا في شعرهما على أساليب العرب، ورأى بأن أنفس الشعراء من العرب لم يتفقوا على سلوك طريق بعينها، وإنما هي مذاهب مختلفة، وإنما المدار على أن توافق التراكيب المستعملة تراكيب العرب المألوفة، وفق القواعد الخاصة باللغة العربية، على أنه لا يصح تقليد العرب في كل ما نطقوا به، وإنما يقلدون فيما يؤدي إلى جلاء المعنى والتأثير في الطباع وتحويلها إلى الميل الذي يريده الشاعر.

وهذا الرأي يظهر ميزة المرصفي وحسه النقدي بحاجة العصر؛ الذي جعله يتابع ما قالته العرب ويدعو إلى الأخذ بما يفيد من مبادئهم ومقاييسهم وأساليبهم، وترك ما لا يلائم منه.

- عناصر الاختلاف بين المرصفي وابن خلدون حول الشعر والشاعرية:

غلبت عناصر الاتفاق بين المرصفي وابن خلدون حول مفهوم الشعر وخصوصيه أسلوبه، أما عناصر الاختلاف فتتخصر في:

أولاً: صفة الشاعرية (الملكة المبدعة)؛ هي عند ابن خلدون مكتسبة، بينما يؤكد المرصفي على فطريتها، وقد لحق ذلك اختلاف بينهما حول الذوق (الملكة الناقدة)؛ وهي من جنس الملكة المبدعة عند ابن خلدون، في حين يرى المرصفي أنها فطرية؛ يقول: "الإدراك الذي يتعلق بتناسب الأشياء، ويوجب الاستحسان والاستقباح هو ما يسمى (الذوق)، وهو طبيعي ينمو ويتربى بالنظر في الأشياء والأعمال من جهة موافقتها للغاية المقصودة منها".

ثانياً: مسألة الأساليب؛ إذ يبدو أن ابن خلدون يرى إمكان حصرها، وعدم الخروج عنها، في حين يرى المرصفي أن الأمر بالعكس؛ فالحصر غير ممكن، وبذلك فإن الخروج على ما هو موجود بالتجديد والإضافة إليه سبيل مشروع.

ثالثاً: مسألة استقلال عبارة البيت؛ أو اتصالها بما قبلها وما بعدها، يؤيد ابن خلدون الصفة الأولى، ووافق المرصفي في أن "كل بيت لا بد أن ينفرد بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده، مستقل عما قبله وما بعده، وإذا أفرد أفراداً تاماً في بابه"، لكنه خالفه في احتياج البيت لغيره لتمام معناه؛ يظهر ذلك في قوله معقبا على نص ابن خلدون السابق: "قلت وما ذكر من انفراد كل بيت بمعناه عن سابقه ولاحقه؛ إنما هو في صفة جيد الشعر، كأنه لم يعد غيره شعراً، على أنه ربما قد أوجبت جودة الشعر اغتفار افتقار كل من البيتين لصاحبه".

وهذا المنهج في فهم بناء القصيدة، يتفق ومنهج القصيدة العربية القديمة؛ إذ كانت مشتملة على أجزاء منفصلة بعضها عن بعض مع إجابة وصل هذه الأجزاء ببعضها البعض.

ب- قضايا النقد:

جاء حديث المرصفي عن النقد الأدبي وقضاياها امتداداً لما كانت عليه الحركة النقدية القديمة؛ التي بدأت مع 'ابن سلام الجمحي' (ت 232هـ)، و'ابن قتيبة' (ت 276هـ)، و'قدامة بن جعفر' (ت 337هـ)، وازدهرت مع 'الأمدي' (ت 371هـ)، و'القاضي الجرجاني' (ت 392هـ)، و'عبد القاهر الجرجاني' (ت 471هـ)، وغيرهم.

فاتخذ من مقاييس النقد القديم وقضاياه أساسا بنائيا لنقده؛ إذ اعتمد على أهم ما خلفه التراث النقدي لهؤلاء النقاد من قضايا نقدية؛ التي نقف منها على:

ب-1- المقياس العام للشعر:

يتمثل المقياس العام للشعر عند المرصفي في جملة مقاييس تخص شكل ومضمون القصيدة، وتتلخص في: "صحة المعنى، وتخير اللفظ بخلوه من التنافر والغرابة، وبمناسبته لموضوعه، وجودة التركيب بسلامته من الغموض والحشو، وبمتانة السياق، وحسن الاستعارة، ولطف الإشارة، وغرابة النادرة، والبعد عن الزخرف بالمحسنات وعدم القصد للنكات؛" فالملحوظ أن المرصفي في أخذه بهذا المقياس قد ساير النقاد العرب القدامى فيما عرف عندهم بعمود الشعر؛ وقد ردد المرصفي هذه المقاييس إحياء لها، محاولا التوسيع من عمود الشعر ليشمل القديم والحديث فتصبح عناصره عامة، على خلاف ما كان عند النقاد القدامى من اعتمادها مقاييس للمذهب القديم في القول الشعري.

ب-2- اللفظ والمعنى:

ضمن المقياس العام للشعر عرض المرصفي موقفه من ثنائية اللفظ والمعنى، ودور كل منهما في بناء النص الشعري، يقول في ذلك: "إن الشعر وسائر الكلام بحسب براعة العبارات واشتمالها على الفوائد ينقسم إلى أربعة أقسام: قسم حسن لفظه وكثرت فوائده، وقسم حسن لفظه وقلت فوائده، وقسم كثرت فوائده ولم يحسن لفظه، وقسم فقد الأمرين، ولا نزاع في شرف الأول وانحطاط الأخير، وإنما هي في المفاضلة بين شعر حسن لفظه وقلت فوائده وما يقابله، وعندني أن الأول لسلامته من إيذاء المستمع أفضل وأجمل، وصاحبه أحق بالتقديم والإجلال".

يظهر جليا تأثر المرصفي بتقسيم 'ابن قتيبة' للشعر بحسب جودة كل من اللفظ والمعنى أو رداءته إلى أربعة أقسام، لكن اللافت عنده هو اختياره لما (حسن لفظه وقلت فوائده على مقابله (ما كثرت فوائده وساء لفظه)؛ في إشارة إلى تبني النظرة الفنية التي اعتمدها النقاد الذين رأوا أن الصفة الفارقة بين الأدب وغيره هي الصياغة والكسوة الفنية، وطريقة التعبير

عن المعنى، أما المعنى في ذاته فيأتي ثانياً؛ وهي نظرة تعيد إلى الصورة البيانية قيمتها ودورها بعد أن تحولت لدى المتأخرين إلى حلى وزخارف فارغة.

ب-3- طبقات الشعراء:

يشير المرصفي في التنبيه على معرفة صناعة الشعر إلى أن الشعراء ثلاث طبقات؛ يقول: "ينبغي بحسب نشأة الشعر وما عرض له من التفسير أن نجعل الشعراء في ثلاث طبقات: الطبقة الأولى؛ للعرب جاهليين وإسلاميين من المهلهل إلى بشار بن برد، والطبقة الثانية؛ للمحدثين الذين كانوا يحرصون على موافقة العرب ويجتهدون في سلوك طرائقهم: من ابي نواس إلى ما قبل القاضي الفاضل، والطبقة الثالثة؛ الشعراء الذين غلب عليهم استعمال النكات والإفراط في مراعاة البديع، وهم من القاضي الفاضل إلى هذا الوقت".

الملاحظ أن المرصفي بتقسيمه هذا لم يكن يهدف إلى إبراز الفحول من الشعراء، كما فعل النقاد القدامى؛ ولكنه يهدف إلى تصنيف جل الشعراء إلى زمنه، وهو ما يمد القارئ بأكبر قدر ممكن من الشواهد والأمثلة التي تعينه على تربية الملكة وتحسين الذوق، وقد راعى في ذلك التسلسل الزمني (من الجاهلية إلى وقته)، كما راعى نوعية الإبداع وسماته في كل طبقة؛ فشعراء الطبقة الأولى شعرهم على منوال واحد، والثانية شعراؤها محدثون مخالفون لما سار عليه شعراء الطبقة الأولى، وشعراء الطبقة الثالثة شعرهم يتسم بكثرة البديع والنكات. وفي ذلك دلالة على بعد نظر المرصفي وسعة اطلاعه، وكان لتقسيمه هذا أثر بالغ الأهمية في الحركة النقدية والأدبية بعده.

ب-4- الموازنة الأدبية:

سار المرصفي في الموازنة على منهج النقاد القدامى فيها؛ مثل الأمدى والقاضي الجرجاني، وهي عنده لا تقوم إلا بين شاعرين معاصرين أحدهما للآخر، ويكونان من طبقة

واحدة؛ يقول: "وإنما يوازن شعر البحري بشعر شاعر من طبقة ومن أهل عصره، ومن هو في مضماره ومنزلته"؛ فهو يشترط الاتفاق في الزمان والطبقة والمنزلة الشعرية.

والموازنة في تصور المرصفي إنما تكون في الأساليب فحسب؛ من حيث ديباجة الشعر، وحسن العبارة، وسلاسة الكلام، وعذوبة الألفاظ، وقلة التعقيد في القول.

ولكن تصور المرصفي للموازنة لا يرقى إلى مفهومها الحديث؛ لأن الموازنة في الأسلوب ما هي إلا عنصر من عناصر الموازنة الكثيرة؛ التي منها: اتحاد الموضوع بين الطرفين، والوحدة في باب بعينه من أبواب الفن، والحديث عن عناصر الأدب من عاطفة وخيال وأفكار وعبارات وغيرها.

كما يؤخذ على المرصفي تجاوزه لشرط المعاصرة الذي وضعه؛ ذلك أنه وازن بين شعر محمود سامي البارودي والشعراء السابقين الذين عارضهم مثل أبي نواس والشريف الرضي..، وفضله عليهم؛ ما يسجل عليه نقده التأثري وذاتيته في الحكم لعلاقة الود بينه وبين تلميذه البارودي؛ إذ كان يتعصب له ولا يذكر إلا حسناته ولا يعلق على شعره إلا بالثناء.

- هذه بعض النماذج من القضايا النقدية التي تناولها المرصفي في كتابه بالعرض والنقد، ويمكن القول إن مسلك المرصفي فيها يؤكد الفكرة العامة للإحياء؛ التي ترتد إلى العصور النقدية الأولى، وتتخطى عصور الضعف، وتوجيه المرصفي لمعاصريه إلى النماذج التي تحتذى ممثلاً لهذا الاحتذاء بتجربة البارودي، وكان ما قدمه المرصفي من اختيارات كثيرة من عيون الشعر العربي بغاية تعميم التجربة تحقيقاً لمنهج الإحياء والبعث؛ إذ يعد إحياء الشعر العربي القديم، ووضعه نموذجاً للمحتدين من الشعراء المحدثين أوضح وجوه حركة الإحياء عامة.

مراجع:

- حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، ج1، ج2.
- عبد الحكيم راضي، النقد الإحيائي وتجديد الشعر في ضوء التراث.
- محمد مندور، النقد والنقاد المعاصرون.
- عبد الحي دياب، التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد.